الفصل الثاني

مفهوم التفسير التاريخي

التفسير التاريخي مصطلح يحسن بدايةً بيان معناه، إذ بيان المعنى لأي مصطلح من مقدمات كل بحث وعلم، فلو تم الفصل بين الكلمتين لكانتا مفهومتين كلٌّ في مجال اختصاصها، فكلمة التفسير معناها لغةً البيان، وهو في الاصطلاح بيان معاني كلمات القرآن وآياته وسوره، فالتفسير: علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ[1]، وقد اشتهرت كلمة التفسير لتدل على كتب المفسرين ومذاهبهم في تفسير القرآن الكريم[2].

وأما كلمة التاريخ فهي معرفة الوقت لغة، وهي معرفة الوقت للأحداث الماضية وما تعلّق بها من معارف عن أفكارها وأشخاصها وبلدانها وغيرها، فيقال التاريخ الإسلامي، أو تاريخ الفكر الأوروبي، أو تاريخ هذه الدولة أو تلك، أو تاريخ هذا المفكر أو ذاك، في اصطلاح المؤرخين[3].

---

(1) الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/ 13.

(2) للمزيد عن مذاهب التفسير انظر: طبقات المفسرين، للسيوطي. ودراسات في التفسير والمفسرين، الدكتور عبد القهار داود. واتجاهات التفسير في العصر الحديث، الدكتور عفت الشرقاوي، وكتاب التفسير، للدكتور محسن عبد الحميد، وقحطان الدوري. وكتاب القول المبين في مناهج المفسرين، محمد محمود النجدي، دار الذهبي، الكويت، الطبعة الأولى 1412هـ.

(3) انظر: المقدمة، لابن خلدون، دار الفكر، بيروت/ ط1، 1998م، 21.

والجمع بين الكلمتين أي «التفسير التاريخي للقرآن الكريم»، يعني بيان معاني كلمات وآيات وسور القرآن الكريم مقرونة بتاريخ نزولها بمناسباتها وأسبابها، ومعرفة التوقيت الذي نزلت فيه هذه الآيات، مقرونة مع تواريخ نزول آيات وسور قرآنية أخرى نزلت قبلها أو بعدها.

إذن؛ التفسير التاريخي للقرآن الكريم الذي نصطلح عليه هو بيان معاني آيات وسور القرآن الكريم بحسب أصول التفسير المعروفة في مذاهب التفسير الإسلامي، مع أخذ المعارف والمعلومات التاريخية لهذه الآيات وأثرها على مناسبة النزول وأسبابه بعين الاعتبار، وذلك بمعرفة تاريخ نزول الآية أو السورة، وما نزل قبلها وما نزل بعدها من الآيات والسور القرآنية وكأنها في نظم واحد، وكأنها في نزول مترابط في سياقه ومعانيه وموضوعاته.

ولذا فإن التفسير التاريخي هو نوع من أنواع تفسير القرآن الكريم، يعتمد على علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره، وهو علم قد سبق بيان معناه ومعالمه ومصادره وفوائده العلمية في كتاب: «علم تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره»، بما يغني عن التوسُّع في ذكره هنا.

وما نؤكد عليه هنا هو أهمية هذا العلم، وضرورة التعامل معه على أنه منهج في تدبر القرآن الكريم، إن لم يكن هو منهج القرآن في فهم القرآن على الإطلاق، هذا المنهج ليس نظرياً فقط، بل هو منهج علمي وعملي، ويمكن تطبيقه على كل سور القرآن الكريم، وقد سبق لبعض الباحثين أن قدَّموا تفسيراً تاريخياً للقرآن كله ومنها:

1 ـ تفسير بيان المعاني للسيد عبد القادر ملا حويش العاني، في ست مجلدات، نشر مطبعة الترقي، 1382هـ ـ 1962م، وقد أشار إلى أنه لم يُسْبَقْ في التفسير التاريخي، وأنه أول تفسير على تاريخ النزول[1].

2 ـ التفسير الحديث. لمحمد عزة دروزة، في تسع مجلدات، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1381هـ ـ 1962 م[2].

---

(1) السيد عبد القادر ملا حويش: بيان المعاني، 1 / 5.

(2) كتب الدكتور فريد مصطفى سلمان رسالته العلمية (محمد عزة دروزة وتفسيره القرآن الكريم) وتعقب فيها عمل دروزة بالنقد والتمحيص. . . ، وقد نشر الكتاب عام 1414هـ 1993م، من قبل مكتبة الرشد في الرياض.

3 ـ معارج التفكر ودقائق التدبر . وهـو تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول . تأليف عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني رحمه الله ، نشر منه خمسة عشر مجلداً أتم فيه تفسير السور المكية[1] .

ومما يُؤخذ على هذه التفاسير أنها دخلت في التفسير التاريخي قبل تأسيس علـم في تاريخ النزول ، ولم تكن العناية بالمعرفـة التاريخيـة فيـها كافيـة ، لا في معرفـة تـاريخ نزول الآيات ولا السـور ، فلم تهتم هذه التفاسير في ذكر بداية نـزول السـورة وسـنوات نزولها ، واعتمدت في الغـالب علـى الروايـات التاريخيـة في ترتيـب الـنزول مـع بعـض التعديلات الطفيفة ، وتأثّرت كثيراً بالتفاسير التراثية المذهبيـة ، وسـارت علـى منهجـها التجزيئي في الغالب ، أي في تفسير أجـزاء الآيـات والسـور في ألفاظـها ومعانيـها ، فلـم يظهر فيها التميز العلمي كثيراً عن التفاسير الأخرى .

إن التفسير التاريخي ليـس مجـرد اتبـاع الـترتيب التـاريخي لـنزول سـور القـرآن الكريم ، وإنما هو منهج دراسة وتحليل وتدبر ، ولا يعتبر تجديداً في التفسير حتـى تكـون الدراسة العلمية أساس عمله ومنهجه ، ومن أهمها عـدم التسـليم للعلـوم الاجتهاديـة التراثية التاريخية إلا بعد الفحص والمراجعة العلمية ، ومثالها ترتيبات النزول التراثيـة ، فكلها ترتيبات اجتهاديـة كمـا سـبق بيانـه ، ولا بـد مـن إعـادة النظـر في هـذه الترتيبـات الاجتهادية والتأكد من صوابها ، أو الاجتهاد في ترتيب جديـد يتفـق مـع ترتيـب معـاني القـرآن الكريـم ، ومـا يمكـن أن يكـون قـد تناولـه في السـنوات الأولـى مـن التنـزيل ، والتدّرج في هذه الدراسة سنة بعد سنة ، في نظرة متوازية بين التنزيل والتاريخ والسـيرة النبوية .

ولا بـد أن تعطـى الوحـدة التاريخيـة للسـور القرآنيـة أهميـة كـبرى في التفسـير التاريخي ، وبيان أثرها على تفسير السور ، ودورهـا المسـاعد في الكشـف عـن الوحـدة الموضوعية ، والكشف عن قضية السور وما كان يوازيها في السيرة النبويـة المشـرفة مـن أحداث ، إذ لكل سورة قرآنية قضية رئيسية ، وجملة من القضايا التي تعالجُـها السـورة الواحدة ، بعد معالجات سابقة لما نَزَل من قبلُ من سور القرآن الكريم بحسب ترتيبها .

---

(1) صدرت الطبعة الأولى من الكتاب عن دار القلم دمشق وبيروت ، 1420هـ 2000م

كما لا بد من تذليل الصّعاب التي تواجه علم تاريخ النزول بعامة وعلم الوحدة التاريخية بخاصة، ومنها كثرة الروايات والآثار، المتعلّقة بقضية واحدة، أو في سبب نزول آية واحدة، وقلّة الروايات أو انعدامها بخصوص معرفة الوحدة التاريخية لسورة أخرى، لأن عوامل كثيرة ساهمت في تركيز الروايات وتكثير الآثار وحفظها فيما يخص بعض الآيات والسّور دون غيرها، كما لا بد من أخذ أثر التفسير المذهبي للفرق الإسلامية بعين الاعتبار، كما سبق الإشارة إليه عند الفراهي في دلائل النظم[1].

ولكن وجود الصعوبات في طريق أي علم لا يقطع الطريق عليه، ولا يمنع من البحث فيه وزيادة الاجتهاد في تأصيل قواعده وأسُسِه، فالبحث في علم تاريخ النزول لا بد أن يتواصل، لأنه الأقدر على فهم قضايا السور كلها وهي متدّرجة في تاريخ نزولها، وإعطاء السورة التي لم يرد فيها روايات وآثار خاصة بها دَوراً في فهم التفسير الموضوعي للقرآن كله من خلال معرفة المرحلة التاريخية التي نزلت فيها، مقارنة بما قبلها وما بعدها.

ومن ناحية أخرى يساعد علم تاريخ النزول والتفسير التاريخي في صنع ملَكَة علمية اجتهادية في ترجيح تفسير فقهي على آخر، أو في ترجيح تأويل عقدي على آخر بكثير من الاطمئنان، وبالأخص في تفسير الآيات التي عليها مدار كثير من التفسيرات المذهبية والاختلافات العقدية والسياسية بين المسلمين منذ القرون الهجرية الأولى، إذ قضايا العهد المكي تختلف عن قضايا العهد المدني ودواعيهما، وكلاهما لم ينزلا من أجل الاختلافات المذهبية المتأخرة على تاريخ النزول بقرون.

وقد يقع اللّبس بين التفسير التاريخي الذي ندعو له وبين التفسير التاريخي الذي أنتجه المفسرون في القرون السابقة، من القرن الأول الهجري إلى اليوم، وهذا يضطرنا إلى رفع اللّبْس حتى لا يساءَ فهمُ هذا التفسير وغاياته، وضرورة بيان الفارق بين التفسير التاريخي للقرآن الكريم الذي ندعو له، وبين التفسير التاريخي التراثي للقرآن الكريم وهو الموجود في كتب التفسير المعروفة.

---

(1) انظر: منهجية البحث في التفسير الموضوعي، د. الدغامين، ص 121.

التفسير التاريخي الذي ندعو له هو التفسير البياني مقروناً بالمعاني التي يوحي بها تاريخ نزول الآية في حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

التفسير التراثي التاريخي هو التفسير الذي قدمه العلماء في التاريخ الإسلامي، وهو في الغالب تفسير مذهبي من أهل العقائد والفرق الإسلامية، والتي نفضّل تسميتها بالمدارس الإسلامية، ونفضل وصف تفسيرها بالتفسير المدرسي أو المذهبي، كأن نقول إن تفسير «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي من تفاسير المدرسة الأشعرية، وتفسير «الكشاف» للزمخشري من تفاسير المدرسة المعتزلية، و«تفسير القرآن العظيم» لابن كثير من تفاسير المدرسة الأثرية، ودون أن تُحَمَّلَ هذه التسميات والأوصاف الإساءة لإحدى هذه المدارس أو المفسرين، وإنما بهدف رفع اللَّبْس الذي قد يقع بسبب استعمال وصف التاريخي، فليس المقصود بوصف التاريخي في عملنا إلا تاريخ النبوة، وتاريخ الدعوة في مكة والمدينة، وهو نفسه تاريخ نزول آيات القرآن الكريم وسوره.

فالتفسير التاريخي هو التفسير البياني مقروناً بمعلومات عن تاريخ نزول الآية، من مناسبات فعلية في زمن نزولها في السيرة النبوية، في المرحلة المكية وفي مرحلة نشوء دولة المؤمنين المدنية، وتطورها وتطور قوتها في المعارك والحروب التي تعرضت لها من دول المشركين المجاورة أو من غدر المحالفين لها أو المُرْجفين من المنافقين، كما وصفتهم سورة الأحزاب المدنية.

إن المنهج التاريخي في التفسير الذي ندعو له وإلى إعطائه الأولوية في هذا العصر، يقوم أولاً على أساس فهم القرآن بمعاني اللغة واللسان العربي، والأخذ بعين الاعتبار سياق الأحداث التاريخية التي مرت بها الدعوة الإسلامية النبوية طوال الفترة الزمنية التي نزل بها القرآن الكريم، هذا المنهج التفسيري ليس بديلاً عن التفاسير التراثية المذهبية، فقد كان ولا زال لهذه التفاسير التراثية والمذهبية دور علمي كبير، شأنَ كل التراث الإسلامي، وليس الوصف بالتراثية أو المذهبية إلا وصَفْاً لواقعها ودواعي تأليفها وزمانه، بمعنى أنها تفاسير موروثة من الماضي فقط، ولا يشُوب بعضها إلا القراءة المذهبية المغلقة التي لا تتسامح مع التفاسير والاجتهادات الإسلامية

الأخرى، التي تناصر مذهباً عقدياً أو فقهياً على آخر، ولذا لا يجوز أن ينظر إلى هذه الاجتهادات التفسيرية المذهبية والتراثية على أنها منتهية الصلاحية، ولا أن ينظر إليها نظرة مقدّسة، ولا أنها هي التفاسير الوحيدة للقرآن الكريم إلى يوم الدين، ولا يجوز أن تتحكّم بتفسير القرآن الكريم إلى يوم الدين لا بمجموعها ولا بأفرادها.

إن باب العبادة العلمية في تفسير القرآن الكريم مفتوح إلى يوم الدين، ووجود اختلافات أو تعارُض بين هذه المدارس دليل على أنها مدارس اجتهادية، سواء اعتمدت روايات أثرية أو تأويلات علمية وعقلية، والأصل هو النص القرآني ومعاني القرآن الكلية، والأصل يكون مع القضية الجوهرية لكل سورة قرآنية إذا كان التفسير للوحدة الموضوعية، والأصل يكون مع المعنى اللغوي والعقلي والعلمي الظاهر للآية إذا كان التفسير جزئياً لآية واحدة.

والدعوة إلى الأخذ بالتفسير التاريخي دعوةٌ ضروريّةٌ؛ حتى لا يبقى التفسير الإسلامي للقرآن سجينَ التفاسير التراثية أو التفاسير المذهبية أو التفاسير الجزئية، إما لآحاد المفسرين أو لآحاد الآيات، وحتى يخرج التفسير القرآني من ميدان الاختلاف المذموم بين المدارس والمذاهب العقدية والفقهية والفكرية والسياسية، وذلك بغض النظر عن المدرسة الإسلامية أو الفرقة العقدية أو المذهبية الفقهية التي ينتمي إليها، لأنها في النهاية هي تفاسير مدارس إسلامية، واجتهادات علماء مسلمين إخوة في الدين والإيمان، وليس بالضرورة أن يكون كل اجتهاد تفسيري معصوماً من الخطأ سواء أكان تفسيراً أثرياً موروثاً أم تأويلاً مدرسيّاً موروثاً أم كان تفسيراً علمياً حديثاً أو غيرها.

إذن؛ التفسير التاريخي الذي نقصده هو غير التفسير التراثي التاريخي، لأنه التفسير التاريخي بإطلاق ودون قيد، وهو التفسير الذي يكشف عن غايات وحكمة نزول هذه الآيات في هذا التوقيت بالذات زمن نزوله دون غيره، ولا يخفى على أحد أن التفسير التاريخي هو أيضاً تفسير اجتهادي وبذلك يكون عرضَةً للصواب والخطأ أيضاً، لأنه يعتمد على أخبار تاريخية من السيرة النبوية وكتب الحديث والتفسير، وفي هذه الأخبار ما يحتاج إلى تمحيص وتدقيق، ولكن اليقين إنما هو في نزول القرآن

الكريم مفرقاً وفي قراءة النبي عليه الصلاة والسلام له على الناس على مكث، وأهم ما يميز هذا التفسير عن غيره أنه لا يحصر تفسير الآية بشخُوص معيّنة أو أحداث تسجُن النص في حَدَثها دون معنى النص ومناسبته وغايته.

إن المنهجية العلمية في التفسير التاريخي هي الحُكْم في صحة هذا التفسير، وفي الكشف عن قدرته على تجديد مناهج فهم القرآن، بأصول علمية يتفق عليها، وبالأخص في الاعتماد على المناسبات التنزيلية والتاريخية والموضوعية، والوصول إلى المعنى المقصود من الآيات في سياقها ونظمها ووحدتها الموضوعية والتاريخية قبل كل شيء، ثم في دراسة معاني الروايات الواردة بحسب درجة صحة معناها ومَتْنها وصحة سندها، وليس هناك ما يمنع من النظر في الآثار التفسيرية وأقوال المفسرين، ولكن الترجيح هو للمعنى الذي جاء التنزيل من أجله يوم نزوله، وهو الأقرب للقضية الكلية للآية والسورة التي وُجدت الآية فيها، وللسورة والكتاب الذي وجدت السورة فيه.